الحياة الخالدة

أو

الحياة الأخرى

الشهيد مرتضى مطهري

دار المحجة البيضاء دار الرسول الأكرم (ص)

مكتبة نرجس PDF
www.narjes-library.blogspot.com

الحياة الخالدة

أو

الحياة الأخرى

الشهيد مرتضى مطهري

الحياة الخالدة
أو
الحياة الأخرى

ترجمة محمد علي اذرشب

دار المحجة البيضاء
دار الرسول الأكرم

حقوق الطبع محفوظة

١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - حارة حريك - ص. ب : ١٤/٥٤٧٩
ت : ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٥٢٨٤٧ - فاكس : ٠١/٦٠١٠١٩ - ٠١/٦٠٣٢٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه هي الحلقة السابعة من سلسلة «مقدمة في التصور الإسلامي» للأستاذ الشهيد مرتضى مطهري، وهذا الكتاب من الكتب التي تركها الأستاذ مطهري رضوان الله عليه دون تنقيح وتصحيح، وطُبع في الفارسية بعدَ استشهاده على نواقصه ومطبّاته.

حاولت ما أمكنني أن أرمّم النواقص، وأن أنظم سياق العبارات لتكون أقرب إلى الفهم والتبويب، وإنْ حالفني بعض التوفيق فيما فعلت فما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أُنيب.

يوم القدس (آخر جمعة من شهر رمضان المبارك)

سنة ١٤٠٤ هجرية

«المترجم»

المعاد
من أركان التصور الإسلامي

الإيمان بالحياة الخالدة والحياة الأخروية واحد من أصول التصور الإسلامي ومن أركان الإيمان والاعتقاد في الإسلام، ولا يكون الإنسان مسلماً ما لم يحمل مثل هذا الإيمان.

الأنبياء ـ بأجمعهم ـ دعوا الناس إلى الإيمان بالحياة الأخرى باعتباره أهم أصل بعد التوحيد. وهذا الأصل اصطلح عليه المتكلمون المسلمون اسم «أصل المعاد».

في القرآن الكريم مئات الآيات التي تدور حول الحياة الأخرى ويوم القيامة وكيفية حشر الأموات والميزان والحساب وتسجيل الأعمال والجنة والنار وخلود عالم الآخرة وسائر المسائل المرتبطة بعالم ما بعد الموت. وفي اثنتي عشرة آية ورد ذكر الإيمان باليوم الآخر بعد الإيمان بالله.

القرآن الكريم ذكر عالم القيامة بتعابير مختلفة، وكل تعبير يشكل باباً من المعرفة، وأحد هذه التعابير «اليوم الآخر»

وأراد القرآن من هذا التعبير أن يذكرنا بمسألتين:

الأولى: أن حياة الإنسان بل مسيرة الكون تنقسم بمجموعها على مرحلتين أو «يومين» المرحلة الأولى الفانية (مرحلة الحياة الدنيا)، والمرحلة الأخرى الخالدة (مرحلة الحياة الأخروية)، وورد في القرآن تعبير «الأولى» و «الآخرة» ليعبّر عن الحياتين الدنيوية والأخروية.

﴿وإنَّ لَنَا للآخرةَ والأولى﴾ [الليل/ ١٣].

﴿وللآخرةُ خيرٌ لَكَ مِنَ الأولى﴾ [الضحى/ ٤].

الثانية: إن سعادتنا في هذه الحياة الدنيا المعاشة، وفي الحياة الآخرة المحجوبة عنا تكمن في «الإيمان» باليوم الآخر.

الإيمان بالحياة الأخرى يوفّر لنا السعادة في هذه الدنيا لأن هذا الإيمان ينبّهنا على نتائج أعمالنا، ويُفهمنا أن أعمالنا وأقوالنا صغيرَها وكبيرَها لها، مثل مالنا، يومان: يومٌ أول ويومٌ آخر. أي أنها لا تنعدم ولا تنتهي في الحياة الدنيا، بل تبقى لتُحتَسب في الميزان في اليوم الآخر. من هنا فإن هذا الإيمان يحثنا على أن نكون خيّرين في أعمالنا ونوايانا وأن نبتعد عن أفعال السوء، أي يحثّنا على أن نطوي باستمرار

[illegible] الحياة [illegible] بالحياة الأخرى [illegible]
سعادة [illegible] في هذه الحياة الأخروية لأن أعمالنا [illegible]
[illegible] سعادتنا [illegible]
في هذه الحياة

[illegible] الإيمان باليوم الآخر
[illegible] سعادة [illegible]

مصدر الإيمان بالحياة الأخرى

المصدر الأول والأساس في الإيمان بالحياة الخالدة والحياة الأخرى هو الوحي الإلهي المنقول إلى البشر عن طريق الأنبياء.

بعد أن يؤمن الإنسان بالله وبرسله وبما أنزل الله على رسله عن طريق الوحي فإنه يؤمن أيضاً بيوم القيامة والحياة الخالدة كأهم أصل دعا إليه الأنبياء بعد أصل التوحيد.

من هنا فإيمان الفرد بالحياة الأخرى يتوقف أولاً على درجة إيمانه بأصل النبوة وبصدق أقوال الأنبياء، ويتوقف ثانياً على مستوى معلومات الفرد وعلى صحة تصوره في أمر المعاد والعالم الآخر، ومدى ابتعاد هذه التصورات عن الأوهام والتخيلات الساذجة.

إضافة إلى طريق الوحي الذي بشر به الأنبياء، ثمة طرق أخرى، أو علائم وقرائن أخرى للإيمان بالمعاد. وهذه الطرق حصيلة الجهود الفكرية والعقلية والعلمية البشرية وهي ـ على الأقل ـ تأييد لصحة أحاديث الأنبياء بشأن المعاد والعالم الآخر. هذه الطرق عبارة عن:

١ ـ طريق معرفة الله.

٢ ـ طريق معرفة العالم.

٣ ـ طريق معرفة الروح والنفس الإنسانية.

لا نتطرق هنا إلى هذه الطرق لأن ذلك يفرض طرح مجموعة من البحوث العلمية والفلسفية، ونكتفي بمعالجة الموضوع عن طريق الوحي والنبوة. ونظراً لأنّ القرآن صرح في مواضع عديدة بهذه الطرق أو أشار إليها، فنحن سنشير إليها فيما بعد تحت عنوان «استدلالات القرآن حول العالم الآخر».

وليتضح رأي الإسلام في الحياة الخالدة والحياة الأخرى ندرس الموضوعات التالية:

* ماهية الموت.
* الحياة بعد الموت.
* عالم البرزخ.
* القيامة الكبرى.
* العلاقة بين الحياة الدنيا والحياة الأخرى.
* خلود الأعمال وتجسّمها.
* أوجه الاشتراك والاختلاف بين الحياة الدنيا والحياة الأخرى.
* استدلالات القرآن حول الحياة الأخرى.

ماهية الموت

ما هو الموت؟

هل هو فناء وزوال وانهدام، أم هو تحول وتطور وانتقال من مكان إلى آخر ومن عالم إلى عالم آخر؟

هذا السؤال أشغل ذهن البشرية دوماً، فأناس ذهبوا للبحث عن جواب لهذا السؤال بأنفسهم، وأُناس آمنوا بما أجاب عليه الآخرون.

نحن المسلمون نعود إلى القرآن الكريم لنأخذ منه الجواب على هذا السؤال، ومن الطبيعي فإننا نؤمن بهذا الجواب انطلاقاً من إيماننا بهذا الكتاب الإلهي.

القرآن الكريم له إجابته الخاصة على هذا السؤال، وله تعبيره الخاص في الحديث عن ماهية الموت. فهو يستعمل كلمة «توفّي» غالباً بدل كلمة مات.

والتوفّي في اللغة هو الاستيفاء[١]، وتوفّي المال، أي استوفاه، أو أخذه كاملاً دون نقص. وهذا التعبير ورد في

---

(١) توفي فلان وتوفاه الله: إذا قبض روحه... الله يتوفى الأنفسَ حين موتها أي يستوفيها (لسان العرب، مادة وفى).

اثنتي عشرة آية من الذكر الحكيم. وجميعها تدل على أن الموت في نظر القرآن الكريم عملية استلام. أي استلام المَلَك الموكَّل شخصية الإنسان الحقيقية الكاملة لدى الموت. ومن هذا التعبير القرآني نستنبط ما يلي:

أ ـ ليس الموت فناء وزوالاً وعدماً، بل هو انتقال من عالم إلى عالم آخر، ومن نشأة إلى نشأة أخرى، وتستمر حياة الإنسان بنمط آخر.

ب ـ جسد الإنسان، بأعضائه وتوابعه، لا يمثل الشخصية الواقعيّة للإنسان ولا يعبّر عن (الأنا) الحقيقي للموجود البشري، لأن الجسد لا يُسَلَّم إلى جهة أخرى، بل يبقى في هذا العالم ويتجزأ بالتدريج. والذي يمثل شخصيتنا الواقعية و«الأنا» الحقيقي هو ما يعبر عنه القرآن بالنفس حيناً وبالروح حيناً آخر.

ج ـ هذه الروح أو النفس تحتل ـ في مرتبتها الوجودية ـ أفقا يسمو على أفق المادة والماديات مع أن الروح أو النفس حصيلة التكامل الجوهري في الطبيعة ـ فالطبيعة على أثر التكامل الجوهري وتبدلها إلى روح أو نفس ـ يتبدل أفقها الوجودي ومرتبتها الواقعية، وتسمو إلى مرتبة أعلى، أي تصبح من جنس عالم آخر هو عالم ما وراء الطبيعة.

بموت الإنسان تنتقل الروح أو النفس إلى نشأة من سنخ الروح. وبعبارة أخرى تتم ـ لدى الموت ـ عملية تسليم تلك الحقيقة المتسامية على حقيقة المادة.

القرآن الكريم أشار في بعض الآيات إلى وجود هذه الحقيقة المتسامية في الإنسان، وإلى أنّ هذه الحقيقة هي غير عنصر «الحمأ المسنون» الذي يتكون منه جسد الإنسان.

﴿وإذْ قالَ ربكِ للملائكة إنّي خالقٌ بشراً من صَلصالٍ مِنْ حَمَأ مسنونٍ فإذا سوّيتُهُ ونَفَختُ فيه مِن روحي فَقَعُوا لَهُ ساجدين﴾ [الحجر/ ٢٩ ـ ٣٠].

مسألة الروح أو النفس، وبقاء الروح بعد الموت من أمهات المعارف الإسلامية. نصف المعارف الأصيلة الإسلامية تقوم على أساس أصالة الروح واستقلالها عن البدن وبقائها بعد الموت كما إن القيم الواقعية الإنسانية تستند إلى هذه الحقيقة، ولولا هذه الحقيقة لأضحت تلك القيم وهما محضاً.

الآيات القرآنية التي تتحدث عن الحياة بعد الموت تُصرحُ جميعاً أن الروح حقيقة مستقلة عن الجسد، وأنها تبقى بعد فناء البدن.

بعض المسلمين المتأثرين بتيارات الفكر المادي الغربي ذهبوا إلى أن القرآن لا يقرّ وجود الروح، وأن الإنسان يفنى بعد الموت وينعدم إحساسه بأي شيء، فلا يشعر بسعادة ولا شقاء ويبقى على حاله هذه حتى يوم القيامة إذ يعود الإنسان إلى الحياة الأخرى. وقال هؤلاء: إن كلمة الروح في الآية الكريمة ﴿... قل الروح من أمر ربّي﴾ تعني أمراً آخر غير الروح الإنسانية، ودليلهم على ذلك أن هذه الكلمة وردت في آيات أخرى بمعان أخرى.

غير أن الآيات الكريمة التي تتحدث عن حياة الإنسان بعد الموت ترفض هذه النظرة. دليل القائلين بوجود الروح ليست الآية المذكورة أعلاه فحسب، بل ثمة ما يقارب عشرين آية تحدثت عن الروح بعضها استَعملت كلمة الروح مطلقة وبعضها استعملتها مضافة: مثل روحنا وروح القدس وروحي وكلها تشير إلى وجود حقيقة سامية غير عادية هي «الروح»(١).

ليس القرآن وحده أكد على أصالة الروح في آيات عديدة، بل السنة أيضاً أكدت على ذلك.

---

(١) راجع تفسير «الميزان»، ج١٣ ص ١٩٥، ذيل الآية الكريمة ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ وج٣، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٥، ذيل الآية الكريمة ﴿يوم يقومُ الروحُ والملائكة صفاً﴾.

نذكر فيما يلي نماذج من الايات التي عبّرت عن الموت بالتوفي، وتحدثت بعضها عن أعمال حياتية للإنسان بعد الموت كالكلام والتمني والطلب:

١ ـ **﴿إنَّ الذينَ تَوفّاهُمُ الملائكةُ ظالمي أنفُسهم قالوا: فيم كنتم؟ قالوا: كنّا مُستضعَفين في الأرض. قالوا: ألم تكنْ أرضُ اللهِ واسعةً فتُهاجروا فيها؟ فأولئك مأواهم جهنمُ وساءت مصيراً﴾** [النساء/ ٩٧].

هذه الآية تتحدث عن المستضعفين الظالمي أنفسِهم، أي الفئة التي رضخت للجوّ الفاسد بحُجّة عدم قدرتها على تغييره. والملائكة تصب اللوم على هؤلاء بعد موتهم، وترفض تبريراتهم، إذ أنهم قادرون على الهجرة من المحيط الفاسد على الأقل، وتُحمّلُهم مسؤولية ما حاق بهم من ظلم، بل وتعتبرُهم في زمرة الظالمين. وتلك تذكرة لكل من يعيش في مثل هذه الأجواء.

هذه الآية تعبّر عن الموت أولاً بالتوفي، وتتحدث ثانياً عن حوار يدور بين الملائكة والإنسان في لحظات تلي الوفاة. وهذا الحوار له دلالة على أن الإنسان ـ بعد انتقاله من هذه الحياة ـ يتحدث إلى موجودات باسم الملائكة، بطريقة ـ طبعاً ـ غير الطريقة التي نألفها في هذه الحياة.

٢ ـ ﴿وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنّا لفي خلق جديد. بل هم بلقاء ربّهم كافرون. قل يتوفّاهم ملك الموت الذي وكّل بكم ثم إلى ربكم ترجعون﴾ [السجدة/ ١١ ـ ١٢].

هذه الآية تطرح إحدى شبهات منكري المعاد والحياة الأخرى وهؤلاء المنكرون يقولون إن أجسامنا تفتت وتتفرق في الأرض بعد موتها، فكيف نحيى ثانية؟ القرآن الكريم ـ ضمن تأكيده على أن هذه الشبهة تنطلق من حالة نفسية تتمثل في روح الإنكار والعناد ـ يقول: إن شخصيتكم الواقعية ليست بشيء يفنى ويَضيع، بل يستوفيها الملك الموكل من قِبل الله.

ومثل هذه الشبهة يطرحها القرآن في مكان آخر ويردّ عليها بأنّ الله قادر على أن يعيد خلق الإنسان كما خلقه أول مرة:

﴿وَضَرَبَ مثلاً ونسيَ خلقه قال: منْ يحيي العظام وهي رميم؟ قُلْ يُحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾.

الآية ١١٠ من سورة السجدة، المذكورة، تصرّح ببقاء شخصية الإنسان الحقيقية (أي بقاء الروح) بعد الموت.

٣ ـ ﴿اللهُ يتوفّى الأنفسَ حينَ موتها والتي لَم تَمتْ في

منامها، فيُمسِك التي قضى عليها الموت ويُرسل الأخرى إلى أجل مسمّى، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ [الزمر/ ٦٢].

هذه الآية الكريمة توضح التشابه والسنخيّة بين النوم والموت (وبين اليقظة والبعث ضمنياً). النوم موت ضعيف صغير، والموت نوم شديد كبير. وفي كلا الحالتين تنتقل النفس الإنسانية من نشأة إلى نشأة أخرى، مع فارق هو أن الإنسان لا يعي على نفسه في النوم ولا يعلم عند اليقظة أنه عاد في الحقيقة من رحلة، لكنه يعي كلّ شيء عند الموت.

من مجموع الآيات الثلاث المذكورة يمكننا أن نفهم بوضوح أنّ ماهية الموت ـ في نظر القرآن ـ ليست عدماً وفناء، بل انتقالاً من نشأة إلى نشأة أخرى.

مسألة النوم التي أشار إليها القرآن في الآية الأخيرة من المسائل المعقدة الغامضة أمام العلم. وما يستطيع العلم أن يفهمه عن النوم ـ وهكذا عن الموت ـ هو مجموعة التغييرات التي تحدث على فسلجة الجسم لا غير. أما التغيير الروحي في حالتي النوم والموت فلا سبيل للعلم أن يفهمه.

الإنسان بعد الموت لا يدخل عالم القيامة الكبرى مباشرة كما تدل على ذلك نصوص الكتاب والسنة المتواترة. لأن القيامة الكبرى تقع بعد مجموعة تغييرات عامة في الكون تشمل الجبال والبحار والمياه والشمس والنجوم والكواكب وكل الظواهر المشهودة في الكون، وفيها يجتمع الأولون والآخرون، وحينُها غيرُ معلوم، وربما امتدّ النظام الكوني القائم إلى ملايين أو مليارات السنوات حتى يحدث عليه ذلك التغيير الكبير الشامل، والله وحده هو العالم بذلك.

ويُستفاد من آيات القرآن الكريم (المذكورة في هذا الفصل وغيرها من الآيات) أن الإنسان يعيش في حالة وعي وشعور بين يومي الوفاة والقيامة. وفي هذه الفترة يحسّ بالسرور وبالألم، وسروره وألمه يرتبطان بأفكاره وأعماله في الحياة الدنيا. وتستمر هذه المرحلة حتى تحين ساعة القيامة الكبرى.

الإنسان ـ في رأي القرآن الكريم ـ يمرّ إذن بمرحلتين بعد الموت، بعالمٍ محدودٍ فانٍ مثل عالم الدنيا هو «عالم البرزخ»، وعالَم غير محدود هو عالم القيامة.

عالم البرزخ

البرزخ ما يفصل بين شيئين، والقرآن أطلق هذه الكلمة على الفترة الفاصلة بين الموت والقيامة:

﴿حتى إذا جاء أحدَهم الموتُ قال ربِّ ارجعونِ لعلّي أعملُ صالحاً فيما تركت، كلا إنها كلمةٌ هو قائلُها، ومن ورائهم برزخٌ إلى يوم يُبعثُون﴾ [المؤمنون/ ١٠٠].

علماء الإسلام اقتبسوا كلمة البرزخ من هذا الموضع الوحيد لورود هذه الكلمة في القرآن الكريم وأطلقوا على العالم الفاصل بين الحياة الدنيا والقيامة اسم «عالم البرزخ».

هذه الآية تكتفي بذكر حالة الندم التي تظهر على أفراد بعدَ الموت وطلبهم العودة إلى الحياة الدنيا، وهي بذلك تصرح بوجود نوع من الحياة للإنسان بعد الموت.

ثمة ما يقارب خمس عشرة آية تتحدث عن عالم ما بعد الموت. وتوضح جميعها تمتّع الإنسان بنوع من الحياة في الفترة بين الوفاة والقيامة، وإحساسه باللذة أو الألم. يمكن تقسيم هذه الآيات على ثلاث مجاميع:

١ ـ آيات تستعرض حواراً بين الصالحين أو المفسدين وبين الملائكة، بعد الموت مباشرة والآية ٩٧ من سورة النساء، والآية ١٠٠ من سورة المؤمنين المذكورتان، من هذا النوع من الآيات.

٢ ـ آيات تصريح، بعد الحوار، بتمتع الإنسان بالنعم الإلهية، قبل يوم القيامة:

أ ـ **﴿الذينَ تتوفاهم الملائكة طيّبينَ يقولون: سلامٌ عليكم ادخلوا الجنةَ بما كنتم تعمَلون﴾** [النحل/ ٣٢].

ب ـ **﴿قيل: ادخلِ الجنةَ، قال: يا ليتَ قومي يعلمون بما غَفَر لي ربي وجعلني مِنَ المُكرَمين﴾** [يس/ ٢٦ ـ ٢٧].

والآية الأخيرة تتحدث عن ذلك المؤمن السائر على خط الرسل، الذي دعا قومه فعصوه. وها هو يتجه إلى الجنة بعد موته فيتمنى لو أنّ قومه على قيد الحياة في الحياة الدنيا علموا ما يحيط به من سعادة. ومن الطبيعي فإن حديث الآية يدور عن عالم ما قبل القيامة، لأن القيامة تجمع الأولين والآخرين، ولن يبقى على ظهر الأرض حينئذٍ أحد.

جدير بالذكر أن جناناً عديدة أعدت للصالحين بعد الموت لا جنة واحدة. وهذه الجنان مختلفة في الآخرة

والمقصود من الحديث أن مرتبة الحياة تسمو وترتفع وتكتمل بعد الموت. حياة الإنسان في الحياة الدنيا ذات مرتبة ضعيفة هابطة مثل حياة الإنسان النائم، فإذا انتقل إلى عالم البرزخ تكتمل حياته مثل اكتمال حياة المستيقظ بعد النوم.

يلزم أن نشير هنا إلى مسألتين:

أ ـ استناداً إلى ما ورد عن أئمة الدين من روايات، الإنسان في عالم البرزخ يُسأل عن الأمور التي ينبغي أن يؤمن ويعتقد بها الإنسان، أما محاسبة المسائل الأخرى فموكولة إلى يوم القيامة.

ب ـ أعمال البر والإحسان التي يؤدّيها الأحياء ويهدون ثوابها إلى الأموات، تؤدّي إلى نزول الخير والرحمة على الأموات. الصدقات الجارية، أي الصدقات المستمرة الباقية مثل إيجاد المؤسسات الخيرة التي تعود بالنفع على الناس، والصدقات غير الجارية، وهي الموقتة، لو أدّاها المتصدّق ترحّما على الأموات من الوالدين أو الأصدقاء أو المعلمين، تعود بالسرور والبهجة على الأموات وهكذا الدعاء وطلب المغفرة والحج والطواف والزيارة نيابة عن الأموات.

ربّ أفراد عَقّوا والديهم في حياتهم، ثم تصرفوا بعد مماتهم تصرفاً كسب رضاهم، والعكس صحيح أيضاً.

القيامة الكبرى

المرحلة الثانية من الحياة الخالدة هي القيامة الكبرى. القيامة الكبرى جماعية ترتبط بجميع الأفراد وكل العالم، خلافاً لعالم البرزخ الذي يرتبط بالفرد وبورود الفرد مباشرة إلى هذا العالم. القيامة الكبرى حادثة تستوعب جميع الأشياء وكل أفراد البشر، ويدخل الكون فيها بأجمعه مرحلة جديدة وحياة جديدة ونظاماً جديداً.

القرآن الكريم أخبرنا عن هذه الحادثة الكبرى مقرونة بتكوير الشمس وانكدار النجوم وتسجير البحار وانفجارها وانفطار السماء وانتثار الكواكب وتحول الجبال إلى شيء كالعهن المنفوش... وأمثالها من التغييرات الكونية الهائلة.

يبدو من القرآن الكريم أنّ العالم بأجمعه يتّجه نحو الانهدام والخراب والإبادة، وينشأ عالم آخر تتحكم فيه قوانين ونظم أخرى خالدة تختلف اختلافاً أساسياً عن القوانين والأنظمة الحالية المتحكمة في هذا العالم.

القيامة في القرآن الكريم لها مسميات مختلفة، وكل اسم يوضح جانباً من جوانب وضع ذلك العالم. فباعتبار أن

عالم القيامة يجمع الأولين والآخرين على صعيد واحد سمّي «يوم الحشر» و «يوم الجمع» و «يوم التلاقي»، وباعتبار أن الأسرار والحقائق المخبوءة تنكشف في هذا العالم سُمّي «يوم تبلى السرائر» و «يوم النشور»، وباعتبار خلوده سمي «يوم الخلود»، وباعتبار أن أبناء البشر يغطّون هذا اليوم في حسرة وندم على ما فرّطوا من أمرهم في الحياة الدنيا سمي «يوم الحسرة» و «يوم التغابن»، وباعتباره حدثاً عظيماً وخبراً جسيماً سمي «النبأ العظيم».

العلاقة بين الحياة الدنيا والحياة الأخرى

المسألة الأساسية التي ركزت عليها الكتب السماوية هي العلاقة بين الحياتين. ليس بين هاتين الحياتين انفصال، بذرة تلك الحياة يغرسها الإنسان بيده في هذه الحياة، ومصير الإنسان في تلك الحياة يقرره الإنسان بنفسه في هذه الحياة.

الإيمان، والاعتقاد الصحيح الواقعي، والخلق الإنساني الرفيع البعيد عن الحسد والمكر والخداع والحقد والغش، وكل الأعمال الصالحة المتجهة نحو خدمة الفرد والمجتمع كالخدمات والخيرات والمبرات وأمثالها، تصنع حياة سعيدة خالدة للإنسان؛ على العكس من ذلك فقدان الإيمان والاعتقاد الصحيح، والأخلاق السيئة، والذاتية والأنانية، والظلم، والرياء، وابتزاز الأموال، والكذب والتهمة، والخيانة، والغيبة، والنميمة، والاستنكاف عن العبادة وأمثالها، تؤدي إلى حياة شقية للإنسان في الحياة الأخرى.

رسول الله ﷺ يعبّر عن هذه العلاقة قائلاً: «الدنيا مزرعةُ الآخرة». فكل بذرة صالحة كانت أم طالحة تؤتي أُكُلها

في ذلك العالم. كما أن من المحال أن يحصد الإنسان في هذه الدنيا قمحاً إذا زرع شعيراً أو أن يحصد حنظلاً إذا زرع تمراً، كذلك من المحال أن يزرع الإنسان في هذه الدنيا بذورَ الخير ويحصد في تلك شراً، والعكس صحيح أيضاً.

خلود الأعمال وتجسمها

يُفهم من القرآن الكريم والمرويّ عن أئمة الدين، أن عمل الإنسان باق لا ينمحي أو يزول كبقاء الإنسان وخلوده، وكل أعمال الإنسان تصبح محضرة مرئية في نشأة القيامة. فأعمال الإنسان الخيرة تتجسم بصورة جميلة رائعة تبعث على اللذة والانشراح، وأعماله الشريرة تتجسّم بشكل قبيح مزعج وبصورة مصدر للألم والعذاب[1].

نكتفي هنا بذكر بعض الآيات والروايات بهذا الشأن:

١ ـ ﴿يومَ تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملتْ مِن خيرٍ مُحضرا، وما عَمِلتْ من سوءٍ تودُّ لو أن بينها وبينَه أمداً بعيداً﴾ [آل عمران/ ٣٠].

هذه الآية تصرح بأن الإنسان يرى في يوم القيامة عمله ماثلاً أمامه، خيراً كان أم سوءاً، وأن الإنسان ينفر من عمله السوء المحضر أمامه، حتى يودّ أن يهرب منه، ولات حين

(١) راجع كتاب «عدل إلهي» = العدل الإلهي، وفيه أوضحنا أن «النعيم» و «الجحيم» ليسا إلا صوراً ملكوتية للأعمال.

فرار. العمل المحضر أمام الإنسان هو جزء من وجود الإنسان لا ينفصل عنه.

٢ ـ **﴿وَوَجدوا ما عمِلوا حاضراً﴾** [الكهف/ ٤٩].

وهذه الآية تفيد نفس مفهوم الآية السابقة.

٣ ـ **﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليُروا أعمالَهم فمنْ يعمل مثقالَ ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقالَ ذرةٍ شراً يره﴾** [الزلزال/ ٦ ـ ٨].

الإنسان باق وخالد، وأعمال الإنسان وآثاره باقية ومدونة وخالدة، والإنسان يعيش في الحياة الأخرى بأعماله وأخلاقه وما كسبت يداه في الحياة الدنيا. وسواء كانت هذه الأعمال والمكتسبات صالحة أم سيئة فإنها تكون الصاحب الدائمي الصالح أو السيّيء للإنسان في الحياة الأخرى.

أما الأحاديث(١):

١ ـ قال رسول الله ﷺ: أما إنّ الله عز وجل كما أمركم

---

(١) لم يذكر الأستاذ الشهيد سوى حديثاً واحداً بشأن خلود الأعمال وتجسّمها، وفاته أن يذكر البقية، ولذلك راجعت بحار الأنوار للعلامة المجلسي واستخرجت منه الأحاديث التي يراها القارىء الكريم. =

أن تحتاطوا لأنفسكم وأديانكم وأموالكم باستشهاد الشهود العدول عليكم، فكذلك قد احتاط على عباده، ولكم في استشهاد الشهود عليهم. فللّه على كل عبدٍ رقباء من كل خلقه ومعقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ويحفظون ما يكون منه من أعماله وأقواله وألفاظه وألحاظه والبقاع التي تشتمل عليه شهود ربّه، له أو عليه، والليالي والأيام والشهور شهود عليه أو له، وسائر عباد الله المؤمنين شهود عليه أو له، وحفظته الكاتبون أعماله شهود له أو عليه[١].

٢ ـ قال أبو ذر (رض) سمعت رسول الله ﷺ يقول: حافتا الصراط يوم القيامة الرحم والأمانة، فإذا مرّ الوَصُول للرحم المؤدّي للأمانة نفذ إلى الجنة، وإذا مرّ الخائن للأمانة القَطُوع للرحم، لم ينفعه معهما عمل، وتكفأ به الصراط في النار[٢].

٣ ـ عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه﴾ يقول: خيره وشرّه معه حيث كان، لا يستطيع فراقه حتى يُعطى كتابه يوم القيامة بما عمل[٣].

(١) البحار، ج٧، ص ٣١٥، ط طهران، ١٣٧٧هـ.
(٢) نفس المصدر، ج٨، ص ٦٧.
(٣) نفس المصدر، ج٧، ص ٣١٢.

٤ ـ عن المفضل بن عمر قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الصراط فقال: هو الطريق إلى معرفة الله عزّ وجل، وهما صراطان: صراط في الدنيا وصراط في الآخرة. فأما الصراط الذي في الدنيا فهو الإمام المفروض الطاعة، ومن عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مرّ على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة، ومن لم يعرفه زلت قدمه عن الصراط في الآخرة فتردى في نار جهنم[١].

٥ ـ عن زيد بن علي عن النبي صلى الله عليه وآله يجيء يوم القيامة ذو الوجهين دالعاً لسانه في قفاه، وآخر من قدّامه يلتهبان ناراً حتى يلهبا جسده، ثم يقال له: هذا الذي كان في الدنيا ذا الوجهين ولسانين، يعرف بذلك يوم القيامة[٢].

(١) نفس المصدر، ج٨، ص ٦٦.
(٢) نفس المصدر، ج٧، ص ٢١٨.

مقارنة بين الحياتين

تشترك الحياة الدنيا والحياة الآخرة في كونهما حياتين حقيقيتين وواقعيتين. الإنسان في كلا الحياتين يعي على نفسه وعلى ما يرتبط به. وفي كليهما لذة وعناء وفرح وحزن وسعادة وشقاء. غرائز الإنسان بما فيها الغرائز الحيوانية والغرائز الإنسانية الخاصة تتحكم في كلا الحياتين. يعيش الإنسان في الحياتين بجسده وأعضائه وجوارحه، وفي كلا الحياتين فضاء وكواكب. ولكن بين الحياتين اختلافات أساسية:

في هذه الحياة الدنيا توالد وتناسل وطفولة وشباب وشيخوخة ثم موت، ولا وجود لمثل هذا هناك. هذه الحياة تتطلب العمل وغرس البذور وإعداد الأرضية اللازمة، وتلك حياة جني الثمار والعيش في الأرضية المعدّة. في هذه الحياة تتوفر إمكانية تغيير المسير والمصير من قِبَل الإنسان نفسه عن طريق تغيير اتجاه حركته وعمله، ولا وجود لمثل هذا الإمكان في تلك الحياة. الحياة هنا ممزوجة بالموت ومقرونة بالمادة الفاقدة للحياة، ولا توجد هناك سوى الحياة المحضة، وكل ما يحيط الإنسان هناك له حياة ووعي وإحساس. تتحكم هنا

الأسباب والعلل والظروف الخاصة الزمانية، وتوجد هنا الحركة والتكامل، وهناك يتجلى فقط الملكوت الإلهي والإرادة الإلهية. شعور الإنسان ووعيه وباصرته وإدراكه في ذلك العالم أقوى بكثير من هذا العالم. وبعبارة أخرى ترتفع في تلك الحياة الستائر والحجب عن عين الإنسان، فيدرك الحقائق بعمق، كما يقول تعالى:

﴿فكشفنا عنك غطاءك فَبصرُك اليوم حديد﴾ [ق/ ٢٢].

الحياة الدنيا مقرونة بالتعب والملل، خاصة بسبب فقدان التنوع فيها. الإنسان في هذه الحياة حائر يبحث عن شيء مفقود، وما أنْ يصل إلى هدف من أهدافه حتى يظنه أنه الشيء الذي كان يبحث عنه، فيركن إليه، لكنه يحسّ بعد برهة أن هذا الذي ناله ليس بمطلوبه، فيعود إليه الشعور بالتعب والملل ويبدأ بالبحث عن هدف آخر... وهكذا الإنسان في الحياة الدنيا يبحث دوماً عن شيء لم ينله، ويسأم مما ناله. أما الحياة الأخرى، فهي لصيقة بأعماق فطرة الإنسان وشعوره الشخصي، وهي الحقيقةُ التي طالما بحث عنها، أي الحياةُ الخالدة إلى جوار ربّ العالمين. من هنا لا يحسّ الإنسان فيها تعباً ولا سأماً، والقرآن الكريم يشير إلى

هذه المسألة إذ يقول:

﴿لا يبغون عنها حِوَلاً﴾ [الكهف/ ١١٠].

أي إن أهـل الجنـة لا يشعرون مـللاً ولا سـأماً مـن حياتهم الخالدة في النعيم. أضف إلى ذلك أن أهل الجنة لا يتألـمون لشيء لـم ينالوه، فإرادة الله شاءت أن يتوفر لهم كل ما أرادوه.

براهين القرآن

إيماننا بيوم القيامة ينطلق طبعاً من إيماننا بالقرآن وأقوال الأنبياء، من هنا ليس من الضروري أن نلجأ إلى البرهان والاستدلال أو إلى ذكر الشواهد والقرائن العلمية بشأن يوم القيامة. لكننا نجد في القرآن مجموعة من الأدلة على البعث والنشور استهدفت فيما استهدفت تقريب صورة أحداث القيامة إلى أذهاننا. وها نحن نستعرض هذه البراهين باختصار.

براهين القرآن مجموعة من الأجوبة على منكري القيامة. هذه الأجوبة يمكن أن نقسمها على ثلاثة أقسام:

١ ـ آيات تبين إمكان القيامة وهي تجيب على أولئك الذين خالوا استحالة ذلك.

٢ ـ آيات تجاوزت مرحلة الآيات السابقة، فذكرت نماذج من الحياة الدنيا تشبه البعث والنشور وبذلك تقرب فكرة القيامة إلى الأذهان.

٣ ـ آيات تجاوزت المرحلتين السابقتين، فذكرت أن القيامة أمر ضروري ونتيجة حتمية للحكمة المشهودة في عالم الخليقة.

ونستعرض فيما يلي آيات الأقسام الثلاثة :

أولاً : ﴿وضَربَ لنا مثلاً ونَسِيَ خلقَه قال من يُحيي العظامَ وهي رَميم؟ قُلْ يُحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خَلق عليم﴾ [يس/ ٧٨] .

هذه الآية الكريمة تجيب على اعتراض رجل من الكفار أخذ عظماً نخراً، فطحنه بيده، ثم تساءل معترضاً وقال : **﴿من يحيي العظام وهي رميم؟﴾** والقرآن الكريم يردّ عليه في الآية الكريمة مرتين : مرة ضمن طرح السؤال إذ يقول : **﴿ونسي خلقه﴾** ومرة أخرى بعد السؤال إذ يقول : **﴿قُلْ يُحييها الذي أنشأها أول مرة﴾** .

الإنسان يقسم الأشياء أحياناً إلى ممكنة وغير ممكنة استناداً إلى قدرته وقوته . وحين يواجه شيئاً يفوق قدرته وطاقته يظن أنه غير ممكن ذاتياً . القـرآن يذكر في هذه الآية أن هذا الأمر ممكن لو أُسند إلى القدرة التي أنشأت الإنسان أول مرّة .

في القرآن الكريم آيات كثيرة تتجه إلى هذا النوع من الاستدلال، وتركز على أن مشيئة الله العادل الحكيم التي قضت بظهور معجزة الحياة والخليقة أول مرة، ستعيد الحياة إلى هذا الإنسان يوم القيامة مرة أخرى .

ثانياً: آيات المجموعة الثانية يمكن تقسيمها على مجموعتين:

أ ـ آيات تتحدث عن وقائع سابقة أُعيدت فيها الحياة إلى ميت، كالآيات التي تستعرض حواراً بين الله وسيدنا إبراهيم:

﴿وإذ قالَ إبراهيمُ: ربِّ أرني كيف تُحيي الموتى.

قال: أوَلَمْ تُؤمن؟

قال: بلى ولكن ليطمئنَّ قلبي.

قال: فَخُذْ أربعةً مِنَ الطير فَصُرْهُنَّ إليك، ثم اجعلْ على كلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جزءاً ثم ادعُهُنَّ يأتينكَ سعياً واعلم أن الله عزيزٌ حكيم﴾ [البقرة/ ٢٦١].

ب ـ آيات تستشهد بحياة الأرض والنباتات بعد موتها في الخريف والشتاء، لتبرهن على عودة الحياة إلى الإنسان والكائنات بعد موتها وفنائها بوضع آخر وكيفية أخرى. وهذه الآيات تختلف عن آيات المجموعة الأولى بذكر شواهد محسوسة على قدرة الله من حياتنا الدنيوية، ولا تكتفي بذكر قدرة الله:

﴿والله الذي أرسَلَ الرياح فتُثير سَحاباً فسُقناه إلى بَلَد

ميّتٍ فأحيينا به الأرضَ بعد موتها كذلك النشور﴾ [فاطر/ ٩].

﴿وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربَتْ وأنبتَتْ من كلِّ زوج بهيج، ذلك بأنّ الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير، وأنّ الساعةَ آتية لا ريبَ فيها وأنّ اللهَ يبعَثُ مَنْ في القبور﴾ [الحج/ ٥ ـ ٧].

وهناك آيات كثيرة مشابهة تصور القيامة في إطار نظام الموت والحياة في هذا الكون... هذا النظام الذي نرى نموذجاً مصغراً منه على هذه الأرض.

ولمزيد من التوضيح نقول: نحن البشر نعيش على الأرض عادة خمسين أو ستين سنة وقد يطول بنا العمر إلى مائة سنة، وفي كل سنة نشهد دورة من دورات الموت والحياة، من هنا لا نعجب حينما نرى الأرض تحيى وتهتزّ في الربيع بعد موتها في الشتاء والخريف. ولو كان عمر الإنسان ـ فرضاً ـ عدة شهور، كما هو حال بعض الحشرات، ولم يكن لهذا الإنسان علم بتاريخ الأرض ودوراتها، لما صدّق إطلاقاً عودة الحياة إلى الأرض بعد موتها لأنه لا يستطيع أن يشاهد ذلك.

الإنسان إذن يُشرف بوعي على دورة الحياة والموت في الطبيعة، كما أنه إضافة إلى ذلك يدرك ارتباطه بأجزاء الكون،

ويفهم ارتباط أجزاء الكون مع بعضها. الديدان والحشرات لا ترى ولا تدرك عالماً غير البقعة التي تعيش فيها، ولا تفهم ارتباط عالمها بعوالم طبيعية أخرى. لكننا ندرك ذلك جيداً... ونفهم أن المدينة التي نعيش فيها ترتبط بنظام البلد الذي نعيش فيه، والبلد الذي نعيش فيه يرتبط بنظام الكرة الأرضية، ونظام الكرة الأرضية تابع لنظام مجموعتنا الشمسية، ونظام مجموعتنا الشمسية تابع لنظام الكون بأجمعه. من هنا نستطيع أن نحتمل وجود نظام أشمل وأعم من كوننا هذا... وربّما كان عمر هذا الكون جزء من دورة أكبر وأعظم، وهذا الجزء من هذه الدورة ينطوي على الحياة والموت، وسيعقبه جزء آخر تنعدم فيه الحياة، ثم يعود ذلك النظام الأشمل والأعم لاستئناف الحياة مرة أخرى.

الأنبياء أخبرونا من قِبَل الله عن انهدام الكون وانطفاء شمعة الحياة في زمن معين ثم حشر الأموات في نظام جديد. ونحن نؤمن بذلك انطلاقاً من إيماننا بالنبوة.

القرآن الكريم في أمثلته المذكورة عن نظام الموت والحياة على الأرض يستهدف إعطاء صورة مصغرة عن البعث في يوم القيامة، ويرمي إلى تقريب ذلك إلى الذهن كي لا نتصوره مخالفاً لسنن الكون. فهو يقول إنّ البعث تجديد

للحياة، وتجديد الحياة ظاهرة مشهودة على ظهر الأرض وهذا المعنى ورد في الحديث النبوي الشريف أيضاً عن رسول الله حيث قال:

إذا رأيتم الربيع فأكثروا ذكرَ النشور.

ج ـ المجموعة الثالثة آيات تتحدث عن القيامة على أنها أمر ضروري وحتمي، وانعدامها يستلزم أمراً محالاً في ذات الله تعالى. وهذا بينه القرآن عن طريقين:

الأول: عن طريق العدل الإلهي، أي عن طريق توضيح حتمية العطاء الإلهي لكل مخلوق يستحق هذا العطاء ويليق له.

والثاني: عن طريق الحكمة الإلهية، وذلك بتوضيح أن الذات المقدسة الإلهية خلقت الموجودات من أجل هدف وغاية. وأن الحكمة الإلهية تستوجب إيصال الموجودات إلى كمالها اللائق وغايتها الممكنة.

القرآن الكريم يذهب إلى أن العدل الإلهي يستوجب وجود القيامة والحياة الخالدة والثواب والعقاب الأخروي، وإن انعدمَ وجودُ هذه الأمور فذلك ظلم ومخالف للعدل الإلهي، والظلم محال على الله. ويذهب أيضاً إلى أن نظام

الخلقة عبث وخواء إنْ فقد الحياة الخالدة، والعبث محال على الله أيضاً.

الآيات الكريمة المندرجة في هذه المجموعة كثيرة نكتفي بذكر موضعين منها:

١ ـ ﴿وما خَلَقنا السماء والأرضَ وما بينهما باطلاً ذلك ظَنّ الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النار. أم نجعلُ الذينَ آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ كالمفسدينَ في الأرض أم نجعل المتّقين كالفُجّار؟﴾ [ص/ ٢٧ و٢٨].

هاتان الآيتان الكريمتان وردتا في سياق الحديث عن العذاب الشديد الذي يحيق بالمنحرفين لنسيانهم يوم الحساب. الآية الأولى تشير إلى حكمة الله وإلى الحكمة في الكون. والثانية تشير إلى عدالة الله، وإلى العدل في نظام الخليقة.

٢ ـ ﴿أم حَسِبَ الذينَ اجترَحُوا السيئاتِ أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، سواء محياهُم ومماتهم؟ ساء ما يحكُمون. وخَلَق الله السمواتِ والأرضَ بالحق ولتُجزَى كلُّ نفسٍ بما كسَبَتْ وهم لا يُظْلَمون﴾ [الجاثية/ ٢١ و٢٢].

الآية الأولى تشير إلى مبدأ العدل والثانية إلى مبدأ الحكمة. وفي ذيل الآية الثانية إشارة أخرى إلى أن العدل الإلهي غاية وهدف لقيام القيامة.

العدل الإلهي والحكمة الإلهية

يلزمنا أن نوضح مبدئي العدل الإلهي والحكمة الإلهية، وارتباطهما بضرورة وجود الحياة الخالدة.

العدل الإلهي:

العدل بمفهومه الواسع يعني إعطاء الحق لذويه دون تمييز بينهم. فعدم إعطاء الحق لذويه مخالف للعدل، وكذلك التمييز بين ذوي الحق في إعطائهم حقهم مخالف للعدل أيضاً.

لو أعطى معلم لكل طلابه علامات أقل مما يستحقونه، فإنه سار بهم خلافاً للعدل، ولو أعطى بعضهم حقّه من العلامات، وأنقص علامات بعض آخر لكان مخالفاً للعدل في سلوكه أيضاً.

العدالة تلازم المساواة من جهة، لأن المساواة تعني عدم التمييز في إعطاء الحقوق. أي تعني إعطاء كل ذي حق ما يستحقه. فإن استحق كثيراً أُعطي كثيراً، وإن استحق قليلاً أُعطيَ قليلاً. أما إذا كانت المساواة مساواة في «الإعطاء» دون

النظر إلى درجة الاستحقاق، أي إعطاء الأفراد مقداراً واحداً متساوياً بغضّ النظر عن مقدار استحقاقهم، فمثل هذه المساواة مخالفة للعدالة ومساوية للظلم. وكذلك المساواة في المنع، أي في حرمان الجميع من حقهم بشكل متساوٍ ظلم أيضاً.

من هنا فالعدل الإلهي يعني وصول العطاء الإلهي إلى كل موجود بمقدار ما في الموجود من درجة وإمكان وقابلية لتقبل عطاء الله تعالى.

إنْ فقد موجود شيئاً، فلأنه يعيش في مجموعة ظروف وملابسات لا توفر فيه إمكان تقبل ذلك الشيء.

مما تقدم نفهم أن العدل الإلهي يفرض منح الكمال اللائق للموجودات المجهزة بالإمكانات اللازمة لهذا المنح والعطاء. وتوقف هذا المنح مخالف للعدل الإلهي.

الإنسان يمتاز عن سائر الموجودات باعتباره موجوداً ذا إمكانيات وكفاءات وقدرات خاصة. الدوافع التي تدفع الإنسان نحو العمل والنشاط لا تنحصر بالدوافع الحيوانية. الحيوان ذو غرائز تربطه بالطبيعة وبحياته المادية. لكن الإنسان ـ كما قلنا ـ ذو غرائز تسمو على الواقع المادي لهذا

العالم وترتفع إلى مستوى البقاء والخلود.

الإنسان يتمتع بدوافع سامية: أخلاقية، وعلمية وذوقية ودينية وإلهية، وينجز كثيراً من أعماله انطلاقاً من هذه الدوافع. ويضحّي أحياناً بحياته الطبيعية والمادية والحيوانية من أجل أهدافه السامية الإنسانية. الإنسان يقيم حياته العملية على أساس «الإيمان والعمل الصالح» بالتعبير القرآني، ويستهدف في حياته العملية هذه السعادة الباقية ورضا الله تعالى. الإنسان ينطوي على فكرة الخلود العظيمة وعلى الأمل في بلوغها، وعلى الغرائز التي تدفعه نحوها.

كل هذه الظواهر تدل على نوع من القابلية والاستعداد للخلود في النفس الإنسانية، وبعبارة أخرى تدل على تجرّد الروح الإنسانية وسموها على المادة. وهذه الظواهر تجعل الإنسان في هذه الحياة الدنيا مثل الجنين في رحم أمه. فالجنين مجهز بالجهاز التنفسي والدموي والعصبي والبصري والسمعي والتناسلي. وهذه الأجهزة تتناسب مع حياة الإنسان بعد خروجه من الرحم ولا تتناسب مع الفترة الموقتة التي يمضيها في الرحم.

صحيح أن الإنسان يجني ثمار عمله في هذه الحياة الدنيا من خلال إيمانه وعمله الصالح لكن هذه الثمار

عارضة؛ لأن نظام الإيمان والعمل الصالح مثل بذرة لا تنمو إلاّ في ظل حياة سعيدة خالدة. أي إن هذا النظام يجد مفهومه الصحيح ومعناه الحقيقي في ظل الحياة الخالدة.

الإنسان يرتفع في أُفق يسمو على أفق الطبيعة المادية، لا في ظل نظام الإيمان والعمل الصالح فحسب، بل في ظل النظام المضاد للإيمان والعمل الصالح، أو نظام الكفر والفسق بالتعبير القرآني أيضاً. ففي إطار نظام الكفر والفسق كذلك تتجاوز أعمال الإنسان حدود الحسابات المادية والحيوانية والاحتياجات البدنية والعلاقات المادية، وتتخذ هذه الأعمال طابعاً روحياً خالداً، ولكن بشكل منحرف ومن هنا يستحق الإنسان المنحرف أيضاً حياة خالدة غير أنها مقرونة ـ مع الأسف ـ بالعذاب والألم. أو هي بالتعبير القرآني حياة جهنميّة.

إن ابتعدَ الإنسان عن مدار الإيمان والعمل الصالح، لا يتحرك في المدار الحيواني، بل يهبط إلى ما دون هذا المدار، إلى تحت الصفر، إلى المستوى الذي تشير إليه الآية الكريمة: ﴿بل هم أضل﴾.

مَثَل الناس المتحركين في إطار نظام الإيمان والعمل الصالح والناس المتحركين في إطار نظام الفسق والشرك

كمثل تلاميذ بعضهم أدى واجباته على النحو الأكمل، وبعضهم قصّر في أداء واجبه وأهمل. فإن أراد معلم أن يحرم جميع هؤلاء التلاميذ من العلامات فقد ظلمهم. وهكذا الأمر لو افترضنا عدم وجود حياة خالدة بعد الموت.

بعبارة أبسط، دعا الله سبحانه وتعالى الناس إلى الإيمان والعمل الصالح. فانقسم الناس أمام هذه الدعوة على قسمين: بعضهم قبلوا الدعوة وتمسكوا بتعاليمها الفكرية والأخلاقية والعملية. وبعضهم رفضوا دعوة الله ولجّوا في عُتُوٍّ ونُفُور. ومن جهة أخرى نرى أن نظام هذا العالم لا يقوم على أساس إثابة المحسن ومعاقبة المسيء حتماً وبالضرورة. بل إن بعض الحسنات ـ مثل الاستشهاد في سبيل الله ـ ينتهي عندها عمر الإنسان ولا يبقى مجال للجزاء. من هنا لا بد من وجود عالم آخر ينال فيه المحسنون جزاء إحسانهم، ويلقى المسيؤون فيه عقابهم، وإلا فذلك مخالف للعدل الإلهي.

الحكمة الإلهية

أعمال الإنسان نوعان: أعمال عابثة فارغة غير منتجة، أي لا تؤثر في إيصالنا إلى درجات الكمال الموجودة فينا بالقوة.. إلى سعادتنا الحقيقية. وأعمال متعقلة حكيمة ذات نتائج جيدة ومفيدة، وذات قدرة على الارتفاع بنا إلى كمالنا اللائق بنا. العمل من النوع الأول لغو وعبث، ومن النوع الثاني أصيل وحكيم.

فالعمل الإنساني الحكيم هو العمل الذي يبلغ بنا إلى كمالنا اللائق.

تُرى، ما هو العمل الحكيم الإلهي؟ هل هو العمل الذي يوصله سبحانه وتعالى إلى كماله اللائق؟ أبداً، فالله غني ذو فضل على العالمين، وما يفعله عطاء وجود وكرم، ولا يؤدي عملاً لرفع احتياجاته أو لبلوغ كمال أو تحقيق سعادة له. العمل الحكيم الإلهي عبارة عن العمل الذي يوصل المخلوق إلى كماله اللائق به. ومن هنا لا يمكن أن يصدر عن الله عمل يتصف باللغو والعبث لأن مثل هذا العمل يعني أن يخلق الله موجوداً دون أن يوصله إلى كماله الممكن

واللائق به.

مما تقدم نفهم الفرق بين مفهوم الحكمة الإلهية، ومفهوم الحكمة البشرية. الحكمة في الإنسان عبارة عن التعقل والسير على طريق الكمال الإنساني. وحكمة الله تعني إيصال المخلوقات إلى كمالها اللائق بها أو خلق الأشياء على أساس دفعها نحو غاياتها وكمالاتها.

حين يصنع الإنسان من المواد الأولية كالتراب والخشب والحجر والمعادن والجلود والقطن وأمثالها وسائل مختلفة مثل الكرسي أو السيارة أو الثوب، فإن هذه الوسائل لا تعتبر تكاملاً للمواد الأولية المذكورة. كما أن هذه المواد الأولية لم تتحرك نحو اتخاذ صور هذه الوسائل، بل إن النتيجة من استخدام الإنسان لهذه الوسائل، كجلوسه على الكرسي وسكنه في المنزل وحركته بالسيارة وارتدائه للملبس، هي كمال للإنسان، أو هي على الأقل أمر نافع له، ذلك لأن الحكمة في عمل الإنسان عبارة عن اتجاه العمل نحو تحقيق كمال للإنسان. من هنا لا يوجد هناك ارتباط حقيقي بالضرورة بين عمل الإنسان والنتيجة التي يحصل عليها الإنسان من عمله. أي إن عمل الإنسان لا يتجه بالضرورة نحو تكامل نتيجة العمل.

أما بشأن الله سبحانه وتعالى، فهناك ارتباط حقيقي وطبيعي بين عمله والنتيجة المترتبة على ذلك العمل. أي إن الغاية والنتيجة من العمل الإلهي عبارة عن الكمال الحقيقي لذلك العمل. الله سبحانه يسوق مخلوقه، الذي هو فعله وعمله، نحو كماله. وهكذا نرى كل حبّة وبذرة تتحرك نحو كمالها وغايتها.

ثمة مسألة تطرح في هذا المجال ترتبط بتغير العالم وعدم ثباته ومن هذه المسألة يستنبط بعضٌ أن العالم يتصف بالعبث والخواء.

عالم الطبيعة مقرون بالتغيير وعدم الثبات وكل غاية، نأخذها بنظر الاعتبار في الطبيعة متغيرة وغير ثابتة. وكل مرحلة من مراحل الطبيعة موقتة فانية، ولا يمثل أي منها المقصد الذاتي.

إنطلاقاً من مفهوم التغيّر المستمر في عالم الطبيعة ذهب جماعة إلى أن حركة العالم لا تصل إلى هدفها الحقيقي، بل هي في تغيير دائم، ومن هنا فهذه الحركة حركة عبثية، لأن الحركة تكون ذات معنى ومحتوى حين تتوخّى هدفاً معيناً، أما إذا لم يكن لهذه الحركة محطة نهائية وهدف نهائي فليس فيها سوى العبث والخواء. حين يعقب كلّ وجود

عدم، ويعقب كلّ بناء هدم، فإن النظام المتحكم في العالم قائم على أساس العبثية والتكرار.

القرآن يرفض هذا الاستنتاج لأنه لا يرى مسيرة الكون محدودة بهذه الحياة الدنيا. لو كانت المسيرة محدودة بهذه الدنيا، وكانت كل ولادة للموت وكل بناء للهدم وكل اخضرار للذبول وكل جديد للبلى لصحّت هذه الشبهة. لكن هذه الفكرة تنطلق من «نظرة ناقصة» تنطلق من فهم للكون محدود بهذه الدنيا ومحصور بالطبيعة المادية. نظام الوجود لا ينحصر بالدنيا والطبيعة المادية. الدنيا «يوم أول» يعقبها «يوم آخر». الدنيا «سير» والآخرة «وصول» يقول علي بن أبي طالب عليه السلام:

الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار.

الآخرة هي التي تمنح الدنيا معنى، إذ أنّ المقصد هو الذي يجعل الحركة ذات معنى. إن لم تكن ثمة حياة أخرى خالدة، لما كان للكون مقصد نهائي بالمعنى الواقعي للمقصد، ولكانت مسير الحياة نوع من «العبث» و«الباطل» و «اللعب» بالمصطلح القرآني.

الأنبياء جاؤوا للوقوف بوجه هذا الانحراف في التفكير

وليرشدونا إلى حقيقة لو فقدناها لتحولت حياتنا بأجمعها إلى عبث ولعب، ولتلوثت أفكارنا بالتصورات الخاوية الفارغة التافهة، ولتحولنا نحن بدورنا إلى موجودات عابثة عديمة المعنى والهدف. أحد آثار الإيمان والاعتقاد بالعالم الآخر يتمثل في إنقاذنا من العبث والفراغ وفي إضفاء معنى على وجودنا وأفكارنا.

المحتويات

المعاد من أركان التصور الإسلامي ٧
مصدر الإيمان بالحياة الأخرى ١٠
ماهية الموت ١٢
لحياة بعد الموت ١٩
عالم البرزخ ٢٠
القيامة الكبرى ٢٥
العلاقة بين الحياة الدنيا والحياة الأخرى ٢٧
خلود الأعمال وتجسمها ٢٩
مقارنة بين الحياتين ٣٣
براهين القرآن ٣٦
العدل الإلهي والحكمة الإلهية ٤٤
الحكمة الإلهية ٤٩

بيروت - لبنان - حارة حريك - ص. ب: ١٤/٥٤٧٩
هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧